تاريخ البيمارستانات

فى العهد الاسلامى

بقلم الدكتور احمد بك عيسى

— ٤ —

أرزاق الاطباء في خدمة المارستانات والخدمة الخاصة

كان للاطباء علي وجه العموم من لدن الخلفاء والملوك والأمراء الاحسان الكبير والا فضال الغزيرة والجامكية الوافرة والصلات المتواترة وكانت ايضا تطلق للأطباء مع الجامكية الجراية وعلوفة للدابة التى يركبونها ، اما المرتبات الشهرية فقد كانت كما يأتى :-

١ – اطباء الخاص ، وكانا اثنين ، لكل منهما فى الشهر خمسون دينارا (١) ولمن دونهما من الاطباء (وهم نحو ٣أو ٤) المقيمين بالقصر لكل واحد منهم عشرة دنانير (٢) ولكل طبيب بالمارستان منه ما يقوم بكفايته(٣) فكان للاطباء بالمارستان على العموم جامكية خمسة عشر ديناراً وكان لبعضهم رزقان أى ثلاثون دينارا فى كل شهر لعملين مختلفين كرضى الدين الرحبي فقد أطلق له صلاح الدين بن يوسف أيوب في كل شهر ثلاثين دينارا (٤) ويكون ملازما للقلعة والبيمارستان ، وبعد وفاة صلاح الدين اطلق له الملك المعظم عيسى بن الملك العادل خمسة عشر ديناراً ويكون متردداً الي البيمارستان وكان لبعضهم كجبرائيل الكحال الف درهم فى كل شهر (٥) وكان لمسويه جامكية من الفضل فى كل شهر ستماية درهم (٦) وعلوفة دابته ثم زيد الي الفي درهم ومعونة في السنة عشرة الف درهم وعلوفة ونزل.

وممن كان يأخذ رزقين جبريل بن عبد الله بن بختيشوع فكان يأخذ برسم الخاص ثلاثماية درهم شجاعية نسبة إلى الامير علم الدين سنجر الشجاعى، وبرسم البيمارستان ثلاثماية درهم شجاعية سوى الجراية وكان لعزالدين بن السويدى جامكية في أربع جهات (٧) في البيمارستان النورى ، وفي بيمارستان باب البريد بدمشق وللتردد على قلعة دمشق ولتدريسه فى الدخوارية .

وكان من أطباء أمير سيف الدولة بن حمدان من يأخذ رزقين لتعاطيه علمين، ومن يأخذ

(١) الدينار خمسة عشر فرنكا فرنسيا «خطط على باشا مبارك ج٤ ص ٤٦» (٢) «صبح الاعشى ج٣ ص٥٢٥» (٣) «ابن أبي أصيبعة ج١ ص٢٤٤» (٤) «ابن القفطى ص١٤٨» (٥) «ابن القفطي ص ١٥٢» (٦) «الدرهم يساوي قرشين اميريين أو نصف الفرنك تقريباً» (٧) «ابن ابى اصيبعة ص٢١٦ ج ٢ »

ثلاثة ارزاق لتعاطيه ثلاثة علوم ، وكان فى جملتهم عيسى النفيس الطبيب فكان يأخذ ثلاثة ارزاق: رزقا للنقل من السريانى الي العربى، ورزقين آخرين بسبب علمين آخرين (١)

ولم يكن حسن موقع الاطباء لدي الخلفاء والملوك واطلاق الجمكيات الوافرة لهم — بمانع من ان يشتغل بعضهم فى البيمارستان احتسابا ،فقد كان كمال الدين الحمصي يتردد على البيمارستان الكبير النورى يعالج المرضي فيه احتسابا (٢)

وقد بلغ بعض الاطباء من حسن الحال ورغد العيش الي درجة عظيمة، فقد بلغ بختيسوع فى زمن الخليفة المتوكل فى الجلالة، والرفق، وعظم المنزلة، وحسن الحال، وكثرة المال، وكمال المروءة ومباراة الخليفة فى اللباس والزى والطيب والفرش والضيافات والتفسح فى النفقات، مبلغا يفوق حد الوصف (٣) .

وإنا نأتي هنا بثبت (٤) ما كان لجبريل بن بختيشوع من الرزق والرسوم والصلات ليعلم القاريء مقدار ما وصل اليه رزق أحد الاطباء فى ذلك العهد.

ذكر أن رزقه كان برسم العامة فى كل شهر من الورق عشرة آلاف درهم، وبرسم الخاصة في المحرم فى كل سنة من الورق خمسون الف درهم وثياب بقيمة عشرة آلاف درهم ، ولفصد الرشيد دفعتين فى السنة مائة الف درهم ،ولشرب الدواء دفعتين في السنة مائة الف درهم، ومن أصحاب الرشيد كل سنة علي ما فصل مع ما فيه من قيمة الكسوة وثمن الطيب والدواب من الورق أربعمائة الف درهم، وتفصيل ذلك :—

٥٠ الف درهم من عيسى بن جعفر و٥٠ الف درهم من زبيدة أم جعفر و٥٠ الف درهم من العباسة و٧٠ الف درهم من فاطمة و٣٠ الف درهم من ابراهيم بن عثمان و ٥٠ الف درهم من الفضل بن الربيع و١٠٠ الف درهم كسوة وطيب ودواب و٨٠٠ الف درهم من غلة ضياء بجنديسابور والسوس والبصرة والسواد و٧٠٠ الف درهم من فضل المقاطعة.

وكان يصير اليه من البرامكة فى كل سنة من الورق الف الف واربعمائة الف درهم وتفصيل ذلك ٦٠٠ الف درهم من يحي بن خالد و١٢٠٠ الف درهم من جعفر بن يحي الوزير و٦٠٠ الف درهم من الفضل بن يحي .

وذلك سوى الصلات الجسام فأنها لم تذكر فى هذا المدرج ، فانظر رعاك الله إلي هذه الثروة التي لا يحلم بها أحد فى هذا الزمان وقد استمرت كذلك عشرات السنين.

كراء عملية جراحية

من المستملح ان يعرف اهل زماننا الحاضر مقدار ما كان يطلب الطبيب في العصر السالف

(١) « ابن القفطى ص ٢٥٠ » (٢) « ابن ابي اصيبعة ص ٢٠١ ج ٢ » (٣) « ابن القفطي ص ١٠٢ » (٤) « ابن القفطي ص ١٤٢ »

أجرا على عملية، لذلك رأيت ان اذكر هذه القصة على سبيل الاستطراد، قال احمد بن يونس: حضرت بين يدى ابن وصيف وقد احضر سبعة أنفس لقدح أعينهم (اي لعمل عملية الماء النازل فى العين وهو الكتركتا) وفى جملتهم رجل من أهل خراسان أقعده بين يديه ونظر الى عينيه فرأى ماء تهيأ للقدح، فساومه على ذلك واتفق معه على ثمانين درهما (أي ماقيمته جنيهان مصريان) وحلف أنه لا يملك غيرها، فلما حلف الرجل اطمأن وضمه الى نفسه فوقعت يده على عضده فوجد فيها نطاقا صغيراً فيه دنانير، فقال له ابن وصيف ما هذا؟ فتلوى، فقال له ابن وصيف قد حلفت بالله وأنت حانث وترجوه رجوع بصرك اليك؟ والله لا أعالجك اذ خادعت ربك. فطلب اليه فأبى أن يقدحه وصرف اليه الثمانين درهماً ولم يقدح عينه. (١)

مدارس الطب واجازات الاطباء

ذكرنا ان طلبة الطب كانوا يتلقون علومه على اساتذتهم فى البيمارستانات اذ كانت تهيأ لهم الايوانات الخاصة المعدة والمجهزة احسن تجهيز بالآلات والكتب يقعدون بين يدى معلمهم، بعد ان يتفقدوا المرضى، وينتهوا من علاجهم كما كان يفعل ابو المجد بن أبي الحكم في البيمارستان الكبير النوري وان بعضا من مشايخ الطب وكبار رؤسائهم كان يجعل له مجلساً عاما لتدريس صناعة الطب للمشتغلين عليه في منزله او فى مدارس خاصة أوقفت لهذا الغرض.

وقد ذكر ابن أبي أصيبعة ص ٢٣٩ أول: أن الفيلسوف الامام العالم أبا الفرج بن الطيب كان يقرىء صناعة الطب فى البيمارستان العضدى ويعالج المرضى فيه. وفى ص ٢٤٤ أول أن ابراهيم بن بكس كان يدرس صناعة الطب في البيمارستان العضدي الذى بناه عضد الدولة وكان له منه ما يقوم بكفايته وقال في ص ٢٥٣ أول: إن «زاهد العلماء» الف كتابه فى الفصول والمسائل والجوابات التى أجاب عنها في مجلس العلم المقرر فى البيمارستان الفارقى وكان في بيمارستان احمد بن طولون خزانة كتب كانت في أحد مجالس البيمارستان وكان فيها ما يزيد على مائة الف مجلد في سائر العلوم. ص ٤٧٢ النجوم الزاهرة.

كما وقف في سنة ٦٢٢ هـ ١٢٢٥ م مهذب الدين عبد الرحيم بن على حامد المعروف بالدخوار شيخ الاطباء ورئيسهم داره بدمشق «المدرسة الدخوارية» شرقي سوقة المناخلين عند الصاغة العتيقة قبلى الجامع الاموى ووقف لها ضياعا وعدة أماكن يستعمل منها ويتصرف فى مصالحها وفى جامكية المدرسين وجامكية المشتغلين بها وكان أول من درس بها بعد واقفها فكان الشيخ مهذب الدين رحمه الله اذا فرغ من البيمارستان وافتقد المرضى من أعيان الدولة وأكابرها وغيرهم يأتى الى داره ثم يشرع فى القراءة والدرس والمطالعة، ولا بد له مع ذلك من نسخ فاذا فرغ منه أيضاً أذن للجماعة فيدخلون اليه، ويأتى قوم بعد قوم من الأطباء والمشتغلين، وكان يقرىء كل واحد منهم درسه، ويبحث معه فيه، ويفهمه إياه بقدر

طاقته و يبحث فى ذلك مع المتميزين منهم إن كان الموضع يحتاج الى فضل بحث أو فيه إشكال يحتاج الي تحرير .

وكان لا يقرىء أحداً إلا و بيده نسخة من ذلك الكتاب الذى يقرؤه ذلك التلميذ ، ينظر فيه و يقابل به فان كان فى نسخة الذى يقرأ خطأ أمره باصلاحه . وكانت نسخ الشيخ مهذب الدين التى تقرأ عليه فى غاية الصحة وكان أكثرها بخطه وكان أبداً لا يفارقه الى جانبه مع ما يحتاج اليه من الكتب الطبية، ومن كتب اللغة كتاب الصحاح للجوهرى والمجمل لابن فارس و كتاب النبات لابى حنيفة الدينورى ، فكان إذا جاءت فى الدرس كلمة لغة تحتاج الى كشفها وتحقيقها نظرها فى تلك الكتب .

ثم مرض وتوفى في يوم الاثنين صفر سنة ٦٢٨ هـ ، ٢٤ ديسمبر سنة ١٢٣٠م ، ووصى الشيخ مهذب الدين عبدالرحيم(١) أن يكون المدرس فيها الحكيم شرف الدين علي بن الرحبي.

افتتاح المدرسة الدخوارية

لما كان فى يوم الاثنين ١٢ ربيع الآخر سنة ٦٢٨ هـ ، ١٨ فبراير سنة ١٢٣٠م حضر الحكيم سعد الدين ابراهيم بن الحكيم موفق الدين عبدالعزيز والقاضى شمس الدين الخواتيمي والقاضى جمال الدين الخرستانى والقاضى عزالدين السنجارى وجماعة من الفقهاء والحكماء وشرع الحكيم شرف الدين ابو الحسن على بن يوسف بن حيدرة الرحبي فى التدريس بها فى صناعة الطب واستمر على ذلك و بقى سنين عدة ثم صار المدرس فيما بعد الحكيم بدر الدين المظفر بن قاضى بعلبك ، وذلك أنه لما ملك دمشق الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين ممدود ابن الملك العادل كتب للحكيم بدر الدين بن قاضى بعلبك منشورا برياسته على سائر الحكماء فى صناعة الطب وأن يكون مدرساً للطب فى مدرسة الحكيم مهذب الدين عبد الرحيم بن على المعروف بالدخوار وتولى ذلك فى يوم الاربعاء رابع صفر سنة ٦٣٧هـ، سنة ١٢٣٩م ثم درس بعده عماد الدين الدنيسرى(٢) ومحمد بن عبدالرحيم بن مسلمة كمال الدين الطبيب (المتوفى سنة ٦٩٧هـ ، سنة ١٢٩٧م) . والجمال المحقق احمد بن عبدالله بن الحسين الأشقر وقد ولي مشيخة الدخوارية وتوفى سنة ٦٩٤هـ ، سنة ١٢٩٤م . وامين الدين سليمان بن داود الدمشقى (توفى سنة ٧٣٢هـ ، ١٣٣١م . ثم شهاب الدين بن الشهاب الكمال توفى سنة ٧٣٢هـ، ١٣٣١م(٣)) ؟

احمد عيسي

---

(١) «ابن أبى أصيبعة ص٢٤٤ ج٢» (٢) « كتاب تنبيه الطالب وارشاد الدارس»
(٣) « عن تنبيه الطالب ج ٢ » .

المريخ الكوكب الغامض

عاد المريخ الى الاقتراب من الأرض مرة أخرى منذ بضعة أشهر ،وعاد تساؤل الفلكيين: هل توجد حياة فوق ذلك الكوكب ؟ وهل تعيش هناك كائنات عاقلة ؟ وماذا يكون شكلها إن وجدت ؟ وقضى الفلكيون أياماً سعيدة يرسمون الخرائط لسطح الكوكب بهمة، و يشاهدون التغيرات التي طرأت عليه بعد اقترابه الأخير منذ سنتين .

(صورة المريخ الفوتوغرافية كما أخذت فى مرصد مونت ولسن بامريكا بواسطة تلسكوب كبير قطره ٦٠ بوصة)

و يجد الفلكيون صعوبة لاتقدر فى دراسة المريخ نظراً لصغره المتناهى : فهو في أقرب بعد له عن الارض لا يزيد حجمه عن قطعة من النقد المعدنى عند ما ترى على بعد ربع ميل ، وهو في هذه الحالة يبعد عنا بمقدار ٣٥ مليوناً من الأميال . إلا أن التلسكوب يستطيع أن يخفض ذلك البعد بنسبة ٥٠٠ مرة ،و بذلك نرى المريخ كما لو كان على بعد ٧٠٠٠ ميلا ونشاهده حينئذ كما نشاهد نفس القطعة المعدنية على بعد ياردة واحدة .

فاذا نظرنا الى المريخ بواسطة مرقب مقرب فانا نرى فى سطحه قرصاً وردى اللون يتناثر عليه عدد عظيم من العلامات الخضراء القاتمة وفى الطرفين المتقابلين لهذا القرص نشاهد بقعتين مستديرتين لونهما أبيض. ومما يستلفت النظر فيهما انهما تتسعان وتضيقان فى الشتاء والصيف على التوالى . و يرجح أن هاتين البقعتين يكونان منطقتين قطبيتين تتسعان في الشتاء لتراكم الثلج وتضيقان صيفاً لذوبانه .

، فى أثناء ذوبانهما فى فصل الصيف المريخى يبين المرقب الطيفي Spectroscope أن الجو المحيط بهما يكون متشبعاً ببخار الماء ، وان موجة من الاخضرار المتزايد تنتشر من أطرافهما فوق كل العلامات المعتمة التي سلف ذكرها .

والغريب في أمر المريخ انه خال تماماً من البحار والمحيطات ، وتلك الصحائف المائية التي تبدو على سطحه ليست إلا صحائف مؤقتة تحيط بالقمم الثلجية التى تذوب صيفا . والجزء

الأعظم من المريخ هو في الحقيقة صحراء مقفرة ، يلطف جديها تناثر بعض المناطق النباتية الخضراء هنا وهناك .

ومع وجود السحب بالمريخ فان جوه لا مثيل له في بعض اجزاء ارضنا كالقطبين مثلا فعند قطبي الارض تحجب السحب البيضاء كل شيء فيسود الظلام . ولقد أماطت دراسة المريخ اللثام عن وجود اكسيجين بجوه ولكنه اقل مما هو في جو الارض ، و يرجح انه يعدل الكمية الموجودة منه في هواء اعلى نقطة بجبل افرست ، وعلى هذا اذا انتقل احدنا الى المريخ فان وجهه يزرق سريعا ثم يهلك لعدم وجود الاكسيجين الكافي لتنفسه .

ولقد استطاع الفلكيون ان يقيسوا درجة حرارة المريخ في جملة مواضع منه : فدرجة الحرارة في الظهر في المنطقة الاستوائية منه تعدل درجة حرارة يوم من ايام فصل الربيع في انجلترا . الا انه في الشتاء وفي الليل يصير الجو بارداً جداً حتى انه لوصح وجود اناس به لتحتم عليهم جميعاً ان يأووا الي المشاتي الدافئة كما يفعل الاغنياء في كوكبنا .

اما عن وجود الحياة به فيمكننا ان نجزم بوجود النبات . اما الانسان المريخي فأمر لاجواب يجمع العلماء عليه . ولقد قامت ضجة حول وجود ترع وقنوات بالمريخ ، وشوهدت فعلا رقب مقرب فوجد أنها تخترق الصحارى من كل جهة موصلة بين المناطق النباتية المختلفة ، ومعظم تلك القنوات دقيق الصنع ، وتكون شبكة من المستقيمات المتلاقية في نقط معينة علي نظام هندسي بديع مما يجعلنا نعتقد انها من صنع مهندس حاذق خططها للري ، فمظهر تلك القنوات الهندسي هو الذى يجعلنا نظن ان هناك انسانا مريخيا .

ولعل اغمض ما في المريخ تلك التغيرات الشديدة التي تلحق اشكال المساحات النباتية الشاسعة ، فانه ليحدث كثيراً ان منطقة من مناطق النبات تأخذ في التغير والتبدل حتى انه ليأخذنا العجب الشديد عندما نرى مساحة عظيمة من النبات قد تحولت الى منظر جديد لم نألفه في المريخ ، فمثلا منذ سنه ١٩٢٦ أخذت « بحيرة الشمس » — التي كانت في الخرائط القديمة للمريخ ثابتة الشكل — تعاني تغيرات عظيمة شوهدت مستمرة ايضا في سنة ١٩٢٨ .

ولقد فسر هذا التغير بأنه اراحة للارض من الزرع كما نفعل نحن في اراضينا الزراعية ، الا ان هذا التفسير مازال في حاجة الى مشاهدات تدعمه . و يعتقد بعض العلماء انهم لو توصلوا الي معرفة حقيقة هذه التغيرات فان جارنا المريخ لن يصير بعد غامضا ؟ ث ...